التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

صورة الانسان الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم .....

— ٢٩ —

وكان لهذا القائد الذى يزغ نجمه شبه كبير بالرئيس فى نشأته وفى كثير من طباعه ، كلاهما واجه الحياة وهو فى سن الهو واللعب ، وكلاهما شق طريقه فيها بنفسه فكان كالنبتة القوية المستقيمة التى تفلق التربة وهي بعد صغيرة ، لا كتلك الألفاف الملتوية التى لا تعرف من معنى النماء إلا أن تتسلق على غيرها وهى فى ذاتها هزيلة ضحيلة ...

كان جرانت كأبراهام قوة إرادة ومضاء عزيمة ، وكان مثله يلم بما حوله من المشكلات إلماماً تاماً ويستوعب أجزاءها لاتفوته منها صغيرة ولا تستعصى عليه كبيرة ، كما كان يعرف فى كل موقف قدر نفسه لا يغتر ولا يزهى ولا يتضاءل ولا ينكص .. وهو وإن لم تكن له سماحة الرئيس وعذوبة روحه ، فقد توفر له الكثير من بساطته ووداعته ...

كان جندياً فى سنى يفاعته ، ثم انصرف عن الجندية إلى الزراعة حيناً ثم إلى التجارة بعد ذلك ، وظل بضع سنين حائراً يضرب فى الأرض فى طلب الرزق. ولو لم تقم تلك الحرب الأهلية لما وعى التاريخ عنه إلا بقدر ما يعى عن الآلاف غيره من البشر الذين يعبرون هذا الوجود وكأن لم يخلقوا !

وأحس لنكولن أن فى هذا الرجل من الصفات ما يعد متمما لصفاته ، فهو متحمس سريع المضى إلى غايته إذا اتجه همه إلى أمر ؛ وهذه الحمية يقابلها عند الرئيس الروية قبل البدء ، والتمهل إذا مضى فى سيره ...

هذا هو القائد الذى أحس ابراهام أن سوف يكون على يديه النصر بعد تلك الهزائم الشائنة ، وبعد أن خذلته الظروف ، وتنكر له الرجال وضايقوه على صورة لم يكن يطيقها غيره ...

أراد الجنوبيون أن يقوموا بهجوم قوى على العاصمة الشمالية فيضربوا الاتحاد الضربة الحاسمة ، فزحف قائدهم الكبير لى بجيشه فعبر نهر بوتوماك وسار حتى أصبح على بعد خمسين ميلا أو نحوها من وشنجطون فى مكان يدعى جتسبرج ، وهناك التقى به جيش الشماليين بقيادة ميد وهو قائد جديد جعله لنكولن على رأس جيش البوتوماك بعد أن ضاق بتلكؤ سلفه

ودارت فى هذا المكان معركة عنيفة دامت ثلاثة أيام ، وقد استبسل الفريقان فيها واستقتلوا وتوالى بينهما الجزر والمد ، وكأنما طاب لهم الموت فتسابقوا إليه جماعات ، وانتهى الصراع بانسحاب لى ولكن فى ثبات واطمئنان . فكانت هذه المعركة التى سقط فيها أكثر من عشرين ألفاً من الضحايا فاتحة الانتصارات الكبيرة لأهل الشمال . وما أن وصلت أنباؤها إلى العاصمة حتى تدفق الناس إلى حيث يجلس الرئيس وهم من فرط ما قد سرهم من النبأ لا يدرون ماذا يفعلون للتعبير عما فى نفوسهم نحو رجالهم، نحو هذا الحصن الحصين وهذا العتاد المتين

وكان هذا النصر الباهر فى اليوم الثالث من يوليو عام ١٨٦٣ ولقد نام الرئيس ليلته ملء جفونه لأول مرة منذ قامت الحرب ، وفى اليوم التالى حمل إليه البرق رسالة من القائد جرانت ، وكانت له القيادة فى الغرب على ضفاف المسيسبى ... وفض الرئيس الرسالة فاذا جرانت ينبئه أن قد سقطت فى يده فكسبرج ... وكانت هذه المدينة تسمى « جبل طارق » الغرب ، إذ كانت مفتاح النهر إلى الجنوب. ولقد جمع فيها أهل الجنوب ما استطاعوا من قوة وعدة ؛ وكان جرانت قد اتجه إليها منذ فاتحة ذلك العام ، وكان هو وجنوده يلقون النار الحامية من المدافعين عنها ، ولكنه لم يعبأ بما كان يلقى ، ولبث يعمل فى صمت وهدوء حتى أحكم الخطة فأحاط بالمدينة ، وأن حميتها من فوقهم ومن أسفل منهم وما زال بهم حتى أجبروا على التسليم تاركين فى يده ثلاثين ألفا من الأسرى وعدداً هائلاً من البنادق والأسلحة ومقدارا كبيرا من المؤونة والزاد ...

ولا تسل عما فاض فى العاصمة الشمالية من مظاهر الجذل والحبور ؛ فلقد شعر الناس بقرب انكشاف الغمة والتمست فى ضوئه بوارق الأمل فى النصر النهائى بعد هذا العذاب الشديد ...

واشتدت العزائم ورأى المستضعفون والذين استكبروا ما كانوا قبل فى عمى عنه ؛ رأوا فضل رئيسهم وعاقبة ثباته وصبره ، فراحوا يتوبون إليه ويهنئونه بما صبر ...

والرئيس يشارك القوم جذلهم ، ولكن نشوة النصر لا تصرف عينيه عما هو فيه ، كالربان الماهر الحاذق ، لن يدير عينيه عن البحر إذا هو اجتاز مكانا تتجمع فيه الصخور ، ولن يزال محدقا متيقظا حتى تلق السفينة مراسيها ...

وكان فى نفس الرئيس شئ يكاد يكربه فينسيه فرحة النصر ، وذلك أن ميد قد وقف فلم يتعقب لى ويجهز على جيشه لدى انسحابه ، فلقد كان عليه أن يسير النهر ليعود إلى ولاية ڤرجينيا ، وعبور النهر ليس بالأمر الهين على جيش ينسحب ؛ ولكن ميد كان يرى الجيش فى حالة من الاعياء لا يستطيع معها أن يقوده إلى أى زحف مهما هان أمره ، فلقد جاء نصره بشق الأنفس .. وأحس القائد المنتصر الحرج من موقف الرئيس حياله فطلب إليه أن يعفيه من القيادة ، فرد عليه الرئيس ملاطفا فى صفح يشبه الاعتذار

وكأنما جاء انتصار الشماليين فى المعركتين فى تلك الأيام على قدر من الظروف ، فلقد كانت تأتى الأنباء من خارج أمريكا بسوء موقف الحكومة الانجليزية من قضية أهل الشمال ؛ تلك الحكومة التى كان يعتقد لنكولن أنها سوف تحمد له قضاءه على العبودية فأعلن قرار التحرير وفى نفسه هذا الرجاء ؛ ولشد ما آلمه بعدها أن يرى الحكومة تتذبذب وتلتوى ولا تخطو إلا على هدى من مصالحها المادية

وكان مما يخفف وقع هذا الجحود على نفس الرئيس ما كانت تأتى به الأنباء من موقف أحرار الشمائل من الشعب الانجليزى حياله ، فلقد علم أن اجتماعات عقدت فى مانشستر ولندن هتف فيها باسم الرئيس هتافا عاليا حتى لقد وقف الناس فى أحدها دقائق يلوحون بقبعاتهم فى الهواء عند ذكر اسمه ؛ وظل هذا موقف الأحرار فى الشعب الانجليزى حتى وصلت إليهم الأنباء بالانتصار السالف الذكر فاستخذى الطامعون وذوو الأغراض من رجال الحكومة والبرلمان ، هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من انتصار الجنوبيين ذريعة لاعلان اعترافهم بهم كأمة مستقلة ، والذين بلغ بهم الحقد على لنكولن وحكومته أن جهزوا سفنا لمناوأة تجارة الشماليين فى المحيط وأرسلوا بعضها فعلا لهذا الغرض

تلك هى نتائج الانتصار فى المعركتين وأثره فى الداخل والخارج .. قال لنكولن عند ما قرأ رسالة جرانت : « الآن يستطيع أبو المياه أن يذهب من جديد إلى البحر وليس فى سبيله عائق » .. واجتمع الناس فى حفل كبير فى مكان معركة جتسبرج ليمجدوا ذكرى ضحاياها وطلبوا إلى الرئيس أن يخطبهم فى هذا الحفل المشهود فكان مما قاله : « منذ سبعة وثمانين عاما أقام آباؤنا فى هذه القارة أمة جديدة ، نشأت على الحرية وعلى ما نودى به من أن الناس خلقوا جميعا على سواء ، ونحن الآن فى حرب أهلية هى بمثابة اختبار لنرى هل تستطيع هذه الأمة أو أية أمة نشأت نشأتها أن تعيش طويلا ... ونحن نجتمع هنا لنخلد موضعا منها نجعله مقرا نهائيا لهؤلاء الذين بذلوا أرواحهم كى تستطيع أمتهم أن تعيش ؛ وهذا عمل مناسب ولائق بنا ، ولكنا لن نستطيع فى معنى أوسع أن نخلد أو نقدس هذه البقعة ... إن البواسل من الرجال سواء فى ذلك الأحياء والأموات الذين ناضلوا هنا قد خلدوها أكثر مما تستطيع قوتنا أن تزيد عليها أو تنقص منها ، وإن العالم سوف لا يهتم كثيرا وسوف لا يتذكر طويلا ما نقول هنا ولكنه لا يستطيع أن ينسى ما فعل هؤلاء » ... ثم زاد على ذلك فقال « يجب أن نصمم على ألا ندع موت هؤلاء يذهب عبثا وعلى أن تعطى هذه الأمة فى عناية الله مولدا جديدا هو مولد الحرية ، وعلى أن تكون حكومة الشعب التى قامت بالشعب وللشعب ، بحيث لا تزول أبدا من فوق الأرض »

هذا هو خطاب الرئيس الذى سمعه الناس فى تلك البقعة التى صبغتها دماء المجاهدين . ولقد وصلت كلماتها إلى أعماق نفوسهم فهزتها هزا لم يتمالك معه الكثيرون أن يحبسوا دموعهم من فرط ما أحسوا من المعانى ...

وآمن كثير من دعاة الهزيمة والتردد بما كان لثبات الرئيس من فضل ، وأيقنوا أن سوف يكون مرد انتصارهم فى النهاية إلى هذا الذى يحمل أثقال قومه فلا ينوء بها ولا يزداد على المحن إلا صلابة واعتزاما .

ولاحظ عليه المتصلون به أن تلك الشدائد وإن لم تنل من عزمه ، قد نالت من جسده ، ورأوا السنديانة يمشى إليها الذبول شيئا فشيئا حتى ليخافوا أن تذوى فتسقط — أجل فزع الناس أن يروا إبراهام تتجع وتتزايد فى وجهه التجاعيد صدر

شبابه لم يك خلوا منهـا ، وأن يلمحوا فى صفحة هذا الوجه المحبوب أمارات الجهد ، وفى نظرات تلك العينين الواسعتين أثر السهد وطول التناء ...

ولـكن روحه أقوى وأعظم من أن يتطرق إليها الوهن ، أو أن تتأثر بشىء مما يصيب جسده ... أليسوا إذا جلسوا إليه لا يزالون يستمتعون بأحاديثه العذبة ونكاته المطربة الظريفة ؟ أوليسوا يسمعون حتى فى تلك الأيام ضحكاته التى قد يطلقها أحيانا فتذهب فى أرجاء الحجرة مجلجلة مدوية ؟ ذهب إليه أحد الرجال فى أمر من الأمور الهامة فأخـذ الرئيس يقص عليه من قصصه حتى لم يطق الرجل صبرا فقال وفى لهجته حدة وفى عبارته شدة: « أيها الزعيم إنى ما جئت هنا هذا الصباح لأسمع قصصا .. إن الوقت عصيب» . فاستمع إلى الرئيس يقول له فى رزانة وأدب « اجلس ياأشلى، إنى أحترمك كرجل مخلص ذى حمية ، وإنك لن يبلغ اهتمامك أكثر مما بلغ اهتمامى هذا الذي ما فارقنى منذ أن بدأت تلك الحرب ، وإنى أقول لك الآن إنه لولا هذا الذى نفس به أحيانا عن نفسى لحاق بى الموت »

ومن أولى من هـذا الرجل وأحق أن يتنفس عن صدره فى هذه الشدائد المتلاحقة ؟ هذا إلى أنه فيما يفعل إنما يصـدر عن طبيعة لا قبل له بالتخلص منها . ولقد كان مما يستعين به فى ضيقه أن يقرأ ، وكانت مآسى شكسبير وفى طليعتها ما كبث ما يتناوله من الـكتب . وإنه يفرح ويهش لمن يشاركه عواطفه وميوله كما أنه كان يضيق بالمتزمتين الذين يزيدون الحياة بتبرمهم وسخطهم أثقالا فوق أثقالهم ..

وسار العام الثالث إلى نهايته والبلاد يتزايد أملها فى النجاح بعد أن كاد يعصف اليأس بالقضية كلها فيأتى عليها ، فلقد رأينا ما كان من دعاة أعداء الحرب وعملهم على عرقلة مساعى الرئيس ومن هؤلاء ولدنجهام الذى مر بنا ذكره ... وهنا نشير إلى رجل آخر هو حاكم ولاية نيويورك ، فلقد كان هذا الرجل من أكبر المنادين بضرورة وضع حد لهذه الحرب أن كان لا يصيب الشماليين منها إلا الهزائم ... ولقـد أدت سياسته إلى قيام ثورة عنيفة فى مدينة نيويورك قام فيها الشاغبون ودعاة الفوضى بأعمال عنيفة ، وبالغوا فى تمردهم وعصيانهم ، حتى اضطرت الحـكومة أن ترسل عليهم فريقاً من الجند يقضون على الفتنة. ومن غريب أمر هؤلاء المتمردين أن قامت حركتهم التى دبروها من قبل عقب الانتصار فى جتسبرج وفكسبرج ، وسبب عصيانهم يرجع إلى قرار أصدره المجلس التشريعى فى مستهل ذلك العام بناء على اقتراح الرئيس يحتم على كل رجل صحيح البدن بين العشرين والخامسة والأربعين أن يحمل السلاح فى سبيل قضية الاتحاد ... ولقد كانت حركة نيويورك هذه من مآسى ذلك العام، ولولا أن جاء النصر وأشرق نور الأمل فى ظلام اليأس لـكان من الجائز أن تمتد الفتنة فتأتى على كل شىء

وافتتح العام الرابع والأحزاب تتأهب للانتخاب ، فلقد قرب موعد الانتخاب للرياسة ، ورأى المخالفون الفرصة سانحة ليعلنوا ما فى نفوسهم نحو الرئيس لنكولن وسياسة حكومته

وظهرت فى الصحف وتواترت على الألسن أسماء مرشحين جـدد لينافسوا الرئيس ؛ فان الديمقراطيين كانوا يقدمون ماكليلان ، ذلك الذى انسحب من الحرب على نحو ما رأينا ؛ وكان بعض الجمهوريين، وعلى رأسهم جريلى، ذلك الذى ما فتىء ينتقد الرئيس ويسدى له النصح ، يرشحون جرانت وتشيس وزير المالية ، وفريق منهم رشحوا فريمونت لهذا المركز السامى

ولبث الرئيس مطمئناً ساكناً إن خاف على شىء فليس خوفه على كرسى الرياسة ، وهل ذاق طعم الراحة فى ذلك الكرسى ؟ وإنما كان يخشى أن يترك قيادة السفينة لربان غيره وهى لما تزل فى طريقها ، ولو أنه كان موقنا أنه يوجد غيره يقودها كما يقود هو لما تردد أن يعطيها له ، فحسبه أن تصل إلى المرفأ ... وكثيراً ما كان يقول : إنه لو وجـد فى الرجال من يحسن إدارة الأمور خيراً منه لتنازل له عن طيب خاطر بل لقبل ذلك مبتهجاً إذ يرى فيه وسيلة من وسائل النجاح

على أنه يترك الأمر للبلاد فهى صاحبة القول الفصل ، قال فى تلك الأيام لبعض جلسائه : « إن انتخابى للرياسة مرة ثانية إنما هو شرف عظيم كما أنه عبء عظيم ، وإنى لن أجفل منهما إذا قدر لى ذلك ...

ولكن البلاد لم تبغ من رجلها بديلا ، وما لبث أن أدرك مخالفوه أنهم كانوا واهمين ، وكيف تتخلى البلاد عن ذلك الذى

تدين بنجاحها له ؟ ولماذا ينصرف عنه الناس ومكانته عندهم فى صميم قلوبهم ؟ لأنه أبلى فأحسن البلاء ، وصبر فاجتنى من الصبر الظفر ، وسهر فلم يشك يوماً من السهر ؟ ... لقد كان الناس يدعونه فى تلك الأيام بقولهم : « أبونا إبراهام » وكانوا يخاطبونه فيقولون : يا أبانا ماذا ترى فى كيت وكيت ، وما كان أحلى هذا اللقب يضاف إلى ألقابه ...

ألا إن الناس ليحرصون على « أبيهم » لا تدور أعينهم إلى غيره ولا تنسع قلوبهم لسواه ؛ فها هى ذى العرائض بترشيحه تترى على الحزب من أنحاء البلاد ومن ميادين القتال فى كثرة عظيمة تليق بجلال قدره وخطورة شأنه وجليل ما قدمت يداه...

وندع الآن ذلك لنعود إلى الحرب وشؤونها ؛ وأول ما نذكره أن الرئيس قد اتفق مع المجلس التشريعى على إسناد القيادة العليا للجيوش جميعاً إلى القائد جرانت.. ثم كتب إلى جرانت يدعوه إلى العاصمة فحضر إليها ، وذهب إلى البيت الأبيض فلقى الرئيس وسمع منه عبارات الاطراء والثناء ثم تلقى منه نبأ تعيينه فى منصبه الخطير .

ولقد تزاحم الناس وتدافعوا بالمناكب حول البيت الأبيض وفى قاعاته ليروا هذا القائد الذى تعلق عليه بعد زعيمهم الآمال... ولقد علق جرانت على هذا اللقاء العظيم بقوله « هذه معركة أشد حراً مما شهدت فى الميادين من المعارك .. »

وبعد أن درس القائد خططه المقبلة مع الزعيم ورجاله ، استأذن فى الرحيل فطلب إليه الرئيس أن يبقى قليلا ليحضر وليمة أعدتها زوجه تكريما للقائد ولم يكن يعلم بها من قبل ليدعوه إليها فاعتذر شاكراً من عدم قبوله بقوله « حسبى ما لاقيته من تلك المظاهر أيها الزعيم ... » وفرح الزعيم أن يسمع ذلك من القائد وهل يهدم الرجال إلا الغرور وحب المظاهر الفارغة ؟

ورحل جرانت إلى الميدان وقد زوده الرئيس بقوله « أنت رجل همة وعزيمة ، وأنا لا أريد وقد سرنى ذلك أن أضع فى طريقك ما عساه أن يعوقك ، وإذا كان فى طاقتى أى شئ يمكنى أن أمدك به فدعنى أعرف ذلك ... والآن سر فى عون الله على رأس جيش باسل وفى سبيل قضية عادلة »

« البقية فى العدد القادم »

الخفيف

فى الأدب العراقى

ديوان الشبيبى العتيد

للاستاذ الحومانى

فى الكرادة من ضواحى بغداد وعلى شاطئ دجلة بيت متواضع يسكنه الشاعر العراقى الكبير الشيخ (محمد رضا الشبيبى) وزير معارف العراق

هو فى منتهى دور الكهولة ويوشك أن ينهد إلى الخمسين ، يعمل عقله فيما يجيب أو يتنزع ، تتخال جمله فى القول فترات تنم على ذلك ، وزين كل الرزانة وهو يحدث ، ويميل فى شعره إلى الاصلاح الأخلاق فى المجتمع . لا يحب أن يجامل ولا أن يظهر أمام زائره بمظهر العز المكسوب ، يزيد التألم خديه وما أحدق بعينيه — وهو يتكلم — تجمداً يبدو لك من ورائه ومن خلال ابتساماته الضئيلة سر عميق فى نفسه يبعثه البؤس والشقاء مما يكابد فى قومه . وإذا لم يرقه حديث جلسائه ولم يستطع مغادرة المجلس تشاغل بمطالعة الصحف ، وقد يشيح بوجهه وهو يتكلم كأنما قد ذكر أمراً قد أنسيه ، ثم يمعن فى التشاغل عنك حتى إذا لفته إليك أدب المجالسة عاد مقبلا عليك تقرأ فى وجهه الاعتذار لك . لا يستقر به المجلس أكثر من بضع دقائق ، وإذا لفته الزهر المحدق بالمجلس رأيته على ما فيه من رزانة يستخفه النظر فيهيم فى الروض مع نسيم دجلة البليل

* * *

الروح الشاعرة إما أن يربيها الألم فينشأ صاحبها متشائماً قليل الحظ من متع الحياة، فلا تراه فى شعره غير شاك أو متألم؛ وإما أن تربيها اللذة فينشأ صاحبها متفائلا لا يعرف وجهاً للألم فى الحياة

وقد تربى الروح الأولى فى النفس نقمة على المجتمع واستعداداً للانتقام منه ، كما قد تربى الروح الثانية فى نفس الشاعر النكتة فى الأدب والاستسلام للشهوات

وقد يتعزى الشاعر المتألم بملهى أو مقهى كما قد يثوب أخوه الغاوى ويرعوى عن غيه فيلهمان معاً جمال الشعر النفسى فى معرض الآلام ، على أن الأول أكثر تألماً لما يستقبل ، والثانى أمضى ألماً على ما خلف